الدرس الثاني

قصة الفيل: وذلك أن أبرهة الحبشي نائب النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يحجون الكعبةَ في مكة، ويعظمونها، ويَفِدون إليها من أماكن بعيدة؛ بنى كنيسة كبيرة في صنعاء؛ ليصرف الحجاج العرب إليها. وسمع بذلك رجل من بني كنانة (إحدى قبائل العرب) فدخلها ليلًا ولطخ جدرانها بالعَذِرَة. ولما علم أبرهة بذلك ثار وغضب، وجهز جيشًا ضخمًا قوامه ستون ألف رجل، معهم تسعة من الفيلة، وسار بهم إلى مكة ليهدم الكعبة، واختار لنفسه فيلًا من أكبر الفيلة، ولما بلغ قريبًا من مكة، هيأ جيشه واستعد لدخول مكة، لكن الفيل بَرَكَ ولم يتقدم، وكانوا كلَّما وجهوه إلى الجهات الأخرى قام يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فبينا هم كذلك، أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة صغيرة أوقد عليها في نار جهنم، وكان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، حجرًا في منقاره، وحجرين في رجليه أمثال الحُمُّص، لا تصيب منهم أحدًا إلا أخذت أعضاؤه تتقطع وتتفتت، حتى يهلك. فخرجوا هاربين يتساقطون في الطريق، أما أبرهة، فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وقد بلغ به الأذى كل مبلغ، حيث مات هناك. وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب، واحتموا بالجبال؛ خوفًا على أنفسهم من ذلك الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل؛ رجعوا إلى بيوتهم آمنين. وكانت هذه الوقعة قبل مولد النبي - ﷺ - بخمسين يومًا.

رضاعة النبي ﷺ:

لما وُلِد النبي - ﷺ - أرضعته ثويبة مولاة عمه أبي لهب، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبدالمطلب؛ ولذلك فإن حمزة - رضي الله عنه - يكون أخًا للنبي - ﷺ - من الرضاعة؛ ولما كان من عادة العرب أنهم يلتمسون لأولادهم المراضع من أهل البادية؛ حيث تتوافر لهم أسباب النشأة البدنية السليمة؛ فقد انتقل النبي - ﷺ - إلى مرضعة أخرى، ففي تلك الفترة التي ولد فيها محمد ﷺ، وصل إلى مكة جماعة من نساء بادية بني سعد بحثًا عن أطفال يتولين إرضاعهم، وراحت النسوة يطفن البيوت، وكن جميعًا يُعرِضْن عن محمد ﷺ؛ ليتمه وفقره. وكانت حليمة السعدية واحدة من تلك النسوة اللآتي أعرضن عنه ﷺ، ولكنها بعد تطوافها على أكثر البيوت لم تظفر بطفل من أسرة غنية تحمله معها، ليخفف أجرُهُ ما تعانيه من شظف العيش وشدة الفقر، وخاصة في سنتها المجدبة تلك. فكرَّت راجعة إلى بيت آمنة راضية بالطفل اليتيم، والأجر القليل. ولقد حضرت حليمة إلى مكة مع زوجها على أتان هزيلة، بطيئة السير، وفي طريق العودة، وهي تضع رسول الله - ﷺ - في حجرها، كانت الأتان تعدو عدوًا سريعًا تُخلِّف وراءها كل الدواب، مما جعل رفاق الطريق يعجبون كل العجب. كما تَذْكُر حليمة أن ثديها لم يكن يُدر إلا القليل من اللبن، وأن طفلها الرضيع كان دائم البكاء من شدة الجوع، فلما ألقمت ثديها رسول الله - ﷺ - درَّ غزيرًا. وتُحدِّث عن جدب أرضها في ديار بني سعد، فلما حظيت بشرف رضاعة هذا الطفل؛ أنتجت أرضها وماشيتها؛ وتبدل حالها كله، من بؤس وفقر، إلى هناء ويسر.

قضى محمد - ﷺ - سنتين في رعاية حليمة، وكانت حريصة عليه كل الحرص، تحس من أعماقها بأشياء وأحوال غير عادية تحيط بهذا الطفل، وبعد هذه السنتين أتت به حليمة إلى أمه وجده في مكة، لكن حليمة التي رأت من بركته - ﷺ - ما غير حالها؛ ألحت على آمنة أن توافق على بقائه عندها مرة ثانية، فوافقت آمنة. وعادت حليمة إلى ديار بني سعد ومعها الطفل اليتيم، تغمرها الفرحة، وتحلق بها السعادة.